الآخر في شعر هذيل - قراءة ثقافية

الأستاذ الدكتور
ستار جبار رزيج
stier@mu.edu.iq
جامعة المثنى ـ كلية التربية للعلوم الإنسانية

The Other in Hudhail's Poetry - A Cultural Reading

Prof. Dr.
Sattar Jabbar Razig
Al-Muthanna University - College of Education for Human Sciences

الملخص:ـ

تهدف هذه الورقة البحثية إلى الاستفادة من معطيات الدراسات الثقافية، في محاولة قراءة تمثلات "الآخر في شعر هذيل"؛ إذ يشكل موضوع الآخر أحد أبرز الإشكاليات الثقافية التي عنتْ بها الدراسات الثقافية تحت مظلة الدراسات ما بعد الحداثية، بوصفها قراءة طباقية تهتم بشكل عام بإشكالات الهوية، وصراعاتها، وبحثت تمظهراتها في النصوص الأدبية، بوصفها تسعى إلى تحرير الوجود الإنساني من علائقية الصراعات العرقية، والعنصرية، والعصبية...، ومن هنا تأتي أهمية البحث عن ملامح صورة الآخر في الشعر؛ ذلك أن الخطاب الشعري يمثّل انعكاساً مباشراً للبنيات السيسيوثقافية، التي تتغلغل في النص الشعري، وتعبر عن الأنساق الثقافية التي يتشكّل منها؛ وبناءً على ذلك اخترت (الآخر في شعر هذيل) عنوانا للبحث، وجعلته على مبحثين، بسطتُ في الأول منهما مهادا نظريا من محورين: الأول يدور حول مفهوم الآخر في الشعر، والثاني يتعلق بقبيلة هذيل، للتعريف بها، وبيئتها، وخصائص شعرها، أما المبحث الثاني فتضمن الجانب التطبيقي من هذا البحث، وهو استقراء لتمثلات الآخر في شعر هذيل، وقد انتخبت اثنين من التمثلات الواضحة للآخر في الشعر الهذلي، وعمدت إلى تحليل نماذجها، وهما: (الآخر القبائلي)، و(الآخر المرأة)، وقد سبقت المبحثين هذه المقدمة، ولحقتْهما خاتمة تضمنت نتائج البحث، مشفوعةً بلائحة المصادر والمراجع، وختاما فهذا جهد المقل، فإن وُفقت فمن الله سبحانه، وإلّا فمن نفسي، والله وليُّ التوفيق.

الكلمات المفتاحية: الآخر، السوسيوثقافية، الآخر القبلي، هذيل، الآخر المرأة.

Abstract:-

This research paper aims to benefit from data from cultural studies, in an attempt to read representations of "the other in Hudhail's poetry." The topic of the other constitutes one of the most prominent cultural problems that cultural studies have dealt with under the umbrella of postmodern studies, as a class reading that is generally concerned with identity problems and conflicts, and has examined their manifestations in literary texts, as it seeks to liberate human existence from the relationality of ethnic and racist conflicts. And nervousness..., hence the importance of searching for the features of the image of the other in poetry. This is because poetic discourse represents a direct reflection of the sociocultural structures that permeate the poetic text and express the cultural patterns from which it is composed. Accordingly, I chose (The Other in Hudhail's Poetry) as the title of the research, and I made it into two sections, in the first of which I spread a theoretical focus from two axes: the first revolves around the concept of the Other in poetry, and the second relates to the Hudhail tribe, to introduce it, its environment, and the characteristics of its poetry. As for the second topic It included the applied aspect of this research, which is an extrapolation of representations of the other in Hudhail's poetry. I selected two clear representations of the other in Hudhail's poetry, and proceeded to analyze their models, namely: (the tribal other) and (the woman's other). The two studies were preceded by this introduction. They were followed by a conclusion that included the results of the research, accompanied by a list of sources and references. In conclusion, this is the effort of the wise. If I succeed, it is from God Almighty, otherwise it is from myself, and God is the Granter of success.

Keywords: the other, sociocultural, tribal other, Hudhail, woman's other.

المبحث الأوّل

- مفهوم الآخر.

- شعر هذيل.

أوّلاً - مفهوم الآخر في الدراسات الثقافية:

شاع مصطلح "الآخر" كثيرا في الدراسات الثقافية، لا سيّما في الدراسة ما بعد الكولونيالية، والنقد النسوي، والاستشراق، وبداية شيوعه جاءت من الفلسفة الفرنسية المعاصرة، عند "جان بول سارتر"، و"ميشيل فوكو"، و"جاك لاكان"، و"إيمانويل ليغيناس"، وغيرهم، ويُقصد به في أبسط صوره مثيل أو نقيض "الذات" أو "الأنا"[١].

ويرتبط سؤال الآخر في الدراسات الثقافية ارتباطا وثيقا بسؤال الهوية، فالآخر هو نقيض الذات، على أساس الاختلاف بين الهويات، ((فقضية الآخر هي موضوعة ظلية في الخطابات المعاصرة عن الهوية، في ما يتعلق بكل من الهوية الفردية وتكوين الذات (في التحليل النفسي بالتحديد) والهويات الجمعية في (علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والدراسات الثقافية). فالآخر هو ما يروغ من شعورنا وتعرفنا، وهو ما يكمن خارج علم "ثقافتنا" وجماعتنا))[٢]، وبناء على ذلك ترتبط ثنائية الآخر والذات بعلاقة الغيرية، أي أن الآخر يمثل كل ما هو غريب وغير مألوف بالنسبة للذات، وفي نفس الوقت تكون الذات آخر بالنسبة للآخر الغيري، ومن هنا تأتي أهمية موضوع الآخر في الدراسات سواء الفلسفية أو النفسية، أو الاجتماعية؛ لأنه بهذه الخصائص يسهم في ((تكوين الذات وتحديد الهوية، إذ يقوم بتأسيس وتوجيه المنطلق الذاتي والشخصي والقومي والثقافي، بوصفه عاملا فاعلا في تكوين الذات إذ يرى سارتر أن "وعي الذات الوجودي" يولد في ذات اللحظة تحت "تحديق" الآخر، لكن الآخر ليس آخرَ خيرا، بل ينطوي على عداء))[٣]، بمعنى أن هناك طابع من العلائقية بين الذات والآخر، على مستوى إدراك الذات لنفسها؛ ذلك أن ((ماهية الشيء تتوقف على علاقته بسواه، بمعنى أن يتقوّم بما يختلف عنه، ولا ينفك عن استدعاء ضده))[٤]، وهكذا نرى أن معرفة الذات تكمن في معرفة الآخر، وكل ما هو ليس ذاتي، هو آخر بالضرورة.

وتشكل دراسة مفهوم الآخر وتطبيقاته على يد إدوارد سعيد (١٩٣٥-٢٠٠٣)، في

دراسته للاستشراق، إحدى أهم التطورات في تناول مصطلح الآخر اشتغالا وتنظيرا، إذ أوضح كيفية تصوير الغرب للشرق على أنه مغاير، ثقافيا وجغرافيا وإنسانيا، فالشرق هو الآخر بالنسبة للغرب، الذي سعى إلى تنميطه بحسب ذاتيته(٥).

ومما تجب الإشارة إليه بأن ارتباط مصطلح الآخر بالذات لا يتعلق بالهوية الفردية وحسب، آية ذلك القول باختصار بأن ((كل ما هو خارج الذات الفردية هو (الآخر) بالنسبة لتلك الذات، وكل ما هو خارج الجماعة الفكرية أو العقائدية هو الآخر بالنسبة لتلك الجماعة، والحديث عن الآخر يقودنا إلى ما يسمى بـ (الآخر / نحن) وهو ما أكده الباحث الفرنسي (جان فارو) عندما عدّ الأنا المتماهية بالمجموع (أنا جماعية) أو (نحن) ولعل هذا المفهوم ما زال حاضرا في مجتمعنا العربي ويحيل إلى وجوده سلوكيات الرغبة في التصفية العرقية أو المذهبية أو السياسية، فالآخر سواء كان فردا أو جماعة تصبح (نحن) آخر بالنسبة إليه أيضا. وكلاهما صورة أو حضور يتحدث فيه شعور الذات بذاتها والتمحور حولها))(٦)، وهذا التحليل يوضح كيفية قيام هذه الثنائية بصفة عامة على العداء وإلغاء الوجود، ومحاولة السيطرة والتنميط على كل ما يكون خارج دائرة الذات، وهو ما يفسر تاريخ أزمات الإنسان مع ذاته.

ثانياً – قبيلة هُذَيل:

قبيلة هُذَيْل ((من قبائل الحجاز المهمة، تنقسم إلى قسمين اثنين: الشمالي والجنوبي، وتقع ديار هذيل الشمالي في أطراف مكة، من جهة الشرق والجنوب، من أطراف مكة والطائف بقرب جبل بَرَد، وجبل ذكا المشهور، أما القسم الثاني فيدعى هذيل اليمن))(٧)، وقبلية هذيل ((من القبائل العدنانية، يلتقي جدها في نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الجد الخامس عشر "مدركة"، فهو هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان، وكانت ديارهم بالسروات، وهي مرتفعات تفصل بين تهامة ونجد))(٨).

ولا يوجد اختلاف أو شك بنسب هذيل ولا بأفخاذها، بل يجمع المحققون على وضوح نسبهم، ومعرفة أخبارهم، وذلك يرجع إلى عاملين:

الأول: صحة النسب التي يتصف بها البدو بشكل خاص.

الثاني: أنهم كانوا عشائر متفرقة في أنحاء الحجاز، ولم تجمعهم بقعة جغرافية واحدة، وهو ما حفزهم للتعلق بنسبهم، والاحتفاظ برابط القربى، لكي يحافظوا على قوتهم أما الآخرين[٩].

أما منازل هذيل فهي سلاسل جبلية في غرب شبه جزيرة العرب، وهي كما أسلفنا ((تنقسم قسمين: شمالية وجنوبية، ويفصل سراة الشمال عن سراة الجنوب بلاد عسير، وفي السراة الأولى سكن الهذليون، وهي تنحدر انحدارا فجائيا إلى الساحل بينما يتدرج هذا الانحدار نحو هضبة نجد، وتتخللها وديان كثيرة، وفيها قامت بعض المدن أشهرها مكة والطائف والمدينة))[١٠].

ولابد لهذه البيئة التي عاش فيها الهذليون من أثر نفسي ينعكس على ذواتهم؛ فقد أشار الباحثون إلى أن طبيعة الأقاليم التي سكنوها، سواء في الوديان أو أعلى الجبال، فإنما كانت تغلب عليه القسوة، وكان للفقر محله منها، وصعوبة الأمر تتجلى بانعدام الأرض المنبسطة التي تخلق طابع الاستقرار لدى السكان، فهي جبال ومرتفعات، فضلا عن كونها مناطق مجدبة أثرت في تكون شخصية قاطنيها[١١].

أما على صعيد الدين فهذيل كانت كسائر القبائل العربية، وثنية الدين تبعد الأصنام، وكان لهم صنم يُسمى "سواع"، وبعد المبعث النبوي الشريف، يُشار إلى نوع من العلاقة المتأرجحة بين الهذليين والإسلام، إذ آمن بعضهم، وأخلص للدين، في حين خالف بعضهم الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وحاربوا دولته، وممن أخلصوا الصحابي عبد الله بن مسعود، وأبو خراش الهذلي الشاعر، وأدرك أبو ذؤيب الهذلي الإسلام وأسلم، وأما من مناوئي الدعوة كان خالد بن سفيان الهذلي الذي قتله عبد الله بن أنس بأمر من النبي لأنه جمع الجموع ضد المسلمين بعد غزوة أحد، مما جعل هذيل تسعى للانتقام لدمه، والتخطيط للإيقاع بالمسلمين وأخذ الثأر منهم[١٢].

وعلى صعيد الأحوال الاجتماعية للقبيلة فإن هذيل ((من القبائل العربية تدين بما يدين به غيرها من عادات وتقاليد، ومن تلك العادات ما كانت تلتزم بها القبيلة، وجاء الإسلام فأبقى عليها عليها كالكرم والشجاعة ومساعدة الجار واحترام حقوقه والصدق والأمانة، ومنها ما حاربها وحاول القضاء عليها كشرب الخمرة واستباحة النساء والثأر الذي جعل

الإسلام حقه للسلطة الحاكمة وليس للفرد))[١٣].

أما على الصعيد الأدبي فيذكر ابن رشيق عن حسان بن ثابت أنه سئل: ((من أشعر الناس؟ فقال: أرجلا أم حيّا، قيل: بل حيّا، فقال: أشعر الناس حيّا هذيل))[١٤]، أما أشعر شعرائهم فهو أبو ذؤيب الهذلي عند ابن سلام الجمحي، وينقل الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء: أن أفصح الشعراء لسانا وأعذبهم أهل السروات، وأولها هذيل[١٥]، وفي هذيل من الشعراء ما ليس في القبائل الأخرى، وقد عرفت أدبيا بالشعر دون النثر، و((تمتاز أشعارهم بالمتانة والصرامة والقوة، وعُدت ألسنة شعرائهم من أفصح الألسن، فاستشهد علماء اللغة بأشعارهم لإثبات آرائهم وحججهم اللغوية))[١٦]، ومن سمات أشعارهم اللفظ الغريب، غير المنفر أو المستثقل، لأنه لا يأتي متكلفا، بل يستعملون ما ينطقون به في حياتهم الانطباعية البدوية[١٧].

وقد أبدع الهذليون في جميع أغراض الشعر، وانطلقت ألسنتهم بأعاريضه، ((لكنهم أكثر ما أبدعوا في الرثاء، ولهم فيه أسلوب تأملي مميز، وذلك حين يتأمل الشاعر الكون حوله، جاعلا الكائنات تشاركه أحزانه، وقد تميّزوا في الوصف، فأكثروا من الأوصاف المنتزعة من البيئة، كوصف المطر والسيل، وأكثر ما يلفت الانتباه وصفهم الدقيق للحيوانات، وصفاتها وطباعها، ولهم غزل رقيق مؤثر في النفوس، أما المديح فلا يظهر إلا عند الشعراء الذين اتصلوا بالأمويين، كأبي صخر وأمية بن أبي عائذ وآخرين))[١٨].

المبحث الثاني

تمثلات الآخر في شعر هذيل:

- الآخر القبلي.
- الآخر المرأة.

أولاً - الآخر القبلي:

يتّضح لنا أن مفهوم الآخر يرتبط بالذات (الأنا) بشكل مباشر؛ التي تتشكل من ((المدركات الشعورية والذكريات والأفكار والوجدانيات، إنّ الأنا مسؤول عن شعور المرء بهويته واستمراريته وهو من وجهة نظر الشخص ذاته يعتبر في مركز الشخصية))[١٩] فأن كل

ما يخرج عن دائرة الذات يمثل بالضرورة الآخر بالنسبة لها، سواء كان ذلك على مستوى الذكورة والأنوثة، أو على مستوى الانتماء القبلي، أو على مستوى الانتماء العرقي، أو سائر المستويات التي من الممكن أن يتحقق بها الاختلاف والمغايرة بين الذات والآخر، فكل ما يختلف عن الذات هو بالضرورة آخر لها، ومن هنا فإن رصد تجليات الآخر مقرون بتجلي الذات، وبناء على استقرائنا لديوان الشعر الهذلي نلمح تمثلات متعددة لمفهوم الآخر في الشعر الهذلي، يمكن أن نصنفها كما يأتي:

أولاً – الآخر القبلي:

لا شك أن البيئة العربية قد فرضت نظاما قبليا في سائر أنحائها مازال راسخا حتى يومنا الحاضر، وقوة الانتماء القبلي لا جدال فيه، ويمكننا القول أن لا قوة أخرى استطاعت أن تنافسه أو تقلل من أهميته سوى ظهور الإسلام الذي حارب بعض العادات القبلية وحد من سطوة القبيلة، وحول الانتماء من قبلي إلى ديني، إذن فقد شكل هذا الآخر اتجاها دينيا في الشعر من حيث الشكل والمضمون من خلال رسم ابعاد تلك العلاقة من جانبها الفكري[٢٠] فللنظام القبلي قواعده التي يفرضها، حتى يستقر نظام القبيلة وتتثبت أركانه، وهو الخضوع المطلق لشيخ القبيلة أو رئيسها، وتأييد أفراد القبيلة بعضهم البعض، ونصر بعضهم البعض ظالمين أو مظلومين[٢١]، وهو ما يعبر عنه دريد بن الصمة بقوله[٢٢]:

وما أنا إلا من غزية إن غوت ... غويتُ وإن ترشد غزيةُ أرشدِ

إن هذا النظام يجعل القبيلة لا تؤمن إلا بنفسها، فهي تحمي نفسها بهذا القانون، وبالمقابل أيضا تحمي القبيلة الأفراد المنضوين تحتها، فالفرد يحمي القبيلة والقبيلة تحمي الفرد[٢٣]، وهو ما يجذر الاختلاف نظام الحياة الاجتماعي، ويزيد من العصبية الشديدة تجاه الانتماء القبلي، فيتجلى في الشعر على شكلين إما فخر بالذات، أو هجاء للآخر، ومن صورة هذه العصبية قول مالك بن خالد الخناعي[٢٤]:

فِدًى لبني لِحْيانَ أُمِّي فإنّهمْ ... أطاعوا رئيسا منهمُ غيرَ عُوِّقِ
أبأْنا بيَوْمِ العَرْجِ يوما بِمثلِه ... غَداةَ عُكاظٍ بالخَليط المفرّقِ
فقَتْلَى بقَتْلاهُم وسَبْياً بسَبْيِهِمْ ... ومالًا بمالٍ عاهِنٍ لَم يُفرَّقِ

فَيُبَـــرحُ منـــهمْ مُوَثـــقٌ في حِبالنِـــا وعَبْـرَى مـتى يُـذْكَرْ لهـا الشَّـجْوُ تَشْـهَق

إن ما يُعنى به تحليلنا لهذه الأبيات هو البحث في ثنائية الأنا/الآخر، التي تنعكس فيها صورة الأنا الجمعية للقبيلة الهذلية مقابل الآخر القبلي الذي هو كل ما يخرج عن هذه الهوية، ويتجلى ذلك من خلال المضمون الذي أشار إلى طاعة القبيلة لرئيسها الموصوف بـ (غير عوّق) أي لا يعوقه شيء عن مصلحة القبيلة، وفي الدال (أبأنا) بمعنى كافأنا، نلحظ اندماج أنا الشاعر مع الأنا الجمعية للقبيلة، مقابل القبيلة الأخرى التي أُخذ الثأر منها، لموقعة سابقة أصابتهم، ونلحظ لعبة الضمائر التي تعكس انشداد الذات إلى هويتها الجمعية مقابل احتقار الآخر الذي يعود عليه ضمير الغائب بالدوال (بقَتْلاهُم / بسَبْيِهِمْ / منهمْ / لها) مع الافتخار بأنهم تركوا منهم المكبل بالحبال، والمرأة التي تشهق من عبراتها.

ومثل هذه اللغة التي تعكس صورة الآخر القبلي كثيرا في شعر قبيلة بني هذيل لا سيما في العصر الجاهلي؛ إذ قلّل الإسلام من روح العصبية القبلية وحولها من روح القبيلة إلى روح الدين.

ونلحظ اقتران صورة الآخر القبلي بصورة سلبية في شعر هذيل، ومن سماتها أنها تأتي لصيقة مظاهر العنف، سواء المعنوي أو اللفظي، ومن صور ذلك قول حذيفة بن أنس مفتخرا بقتل أعدائه[٢٥]:

كشـــفتُ غطـــاء الحـــرب لمـــا رأيتـــها تنـــوء علـــى صـــغوٍ مـــن الـــرأس أصـــعرا
بقتـــل بـــني الهـــادي وقـــيس بـــن عـــامر كشـــفت لهـــم وتـــري وكـــان مخمّـــرا
ونحـــــنُ جزرنـــــا نـــــوفلاً فكأنمـــــا جزرنـــا حمـــارا يأكـــل القـــرف أصـــحرا

ونلحظ كيف يشبه الشاعر عدوه الذي لم يفزع لقتله أحد بأنه أشبه بحمار يرعى لا أحد يهتم لأمره، وهو تشبيه يعكس صورة العداء الشديد بين الذات والآخر في ذلك المجتمع القاسي الذي لا يعرف سوى لغة السيف، والدماء.

ومن صور هذه الغلظة بينهم، وشدة العداء أنهم في الحروب يسعون لإبادة الآخر حتى لا يبقى له باق حتى الأطفال، في محاولة لاجتثاثه، وإلغاء من دائرة الوجود؛ لأنه بقاء طرف له يمكن أن يمثل تهديدا وجوديا لا بد من مجابهته، وفي ذلك يقول المعترض بن حبواء الظفري[٢٦]:

قتلنـــا مخلـــدا بـــابني خـــراق وآخـــر جحوشـــا فـــوق الفطـــيم
وخالـــدا الـــذي تـــأوي إليـــه أرامـــل لا يـــؤبن إلى حمـــيم
وإمـــا تقتلـــوا نفـــرا فإنـــا فجعنـــاكم بأصـــحاب القـــدوم

نلحظ في هذه الأبيات أن الشاعر يفخر بأنه قتل عدوه واثنين من أبنائه، وقتل (جحوش) معهم وهو الطفل الذي لم يتعد ثلاثة أعوام من العمر، وهو ما يؤكد ما نذهب إليه من شراسة الذات تجاه كل ما يشكل آخر قبلي بالنسبة إليه، فهو الانتماء الأكثر حساسية في ذلك العصر كما يبدو من خلال استقراء تمثلاته في الشعر الهذلي، وهكذا يمكن القول أن تمثلات الذات القبلية مقابل الآخر القبلي كثيرة جدا في الشعر الهذلي، حتى أمكن القول أنها ظاهرة واضحة وسمة من سماته، وفيها تبدو الذات الجمعية مندمجة مع القبيلة، ومشاركة في غزواتها، وذائبة في الفخر بصنائعها مهما كانت، ومعادية بشدة للقبائل الأخرى.

ثانياً – الآخر المرأة:

رأينا في ما سبق صورة من صور العلاقة مع الآخر المبنية على التضاد والنزاع والمنافسة والعداوة، ولكن ليس بالضرورة أن تكون صورة الآخر بهذه السلبية، ففي الكشف عن تمثلات الآخر نجد صورة أخرى مباينة لما سبق تتعلق بتمثل صورة المرأة بوصفها آخر للرجل الشاعر الهذلي.

وصورة المرأة في المرويات الشعرية تتمثل بوصفها آخر، ويتراوح الشعراء في تمثلهم لصورة المرأة بين تمثلات عديدة، فمن الشعراء من تتمظهر صورة المرأة في شعره، على هيئة معنوية حيث ينصرف تصويرها إلى مضامينها المعنوية، وموقعها الاجتماعي، وهيأتها النفسية، بغض النظر عن حضورها المادي المتمثل بالهيئة الجسدية المفصولة عن ذاتها، بوصفها امرأة ذات شخصية متكاملة، وفاعلة في دائرة الوجود الإنساني، بشكل مستقل جنبا إلى جنب مع ذات الرجل[٢٧] في حين نرى أن بعض المرويات الشعرية تتمظهر فيها صورة المرأة بهيأة مادية، بوصفها جسدا خالصا، متكونا من مجموعة صفات حسية يستمتع بها الرجل، وليس باعتبارها قيمة إنسانية عليا[٢٨].

ومن المعروف أن لشعراء هذيل غزلا رقيقا، ذا عاطفة صادقة متفجرة، لا عن تقليد ولا صناعة[٢٩]، وفيه تتجلى صورة المرأة التي نلحظ فيها المودة والاعتزاز، لا الشهوانية والفحش، ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي[٣٠]:

أبى القلب إلا أم عمرو وأصبحت ... تحرق ناري بالشكاةْ ونارها
وعيّرها الواشون أني أحبها ... وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك نارها
فلا يهنأ الواشين اني هجرتها ... وأظلم دوني ليلها ونهارها
فإن أعتذر منها فإني مكذبٌ ... وإن تعتذر يردد عليها اعتذارها

وتكتنز هذه الأبيات حرارة المشاعر، وصدق الارتباط العاطفي بين الشاعر ومحبوبته، ورقة الوجد والمعاناة؛ بسبب امتناعها عن بعضها تجنبا للواشين، إذ تتجلى صورة المرأة بوصفها نظيرا للرجل في البيت الأخير إذ نلحظ أن الشاعر يضع نفسه بموازاتها، وهو منظور سامٍ للمرأة في عصر كانت تُعد عند بعضهم جالبة للعار حتى كانوا يئدون بناتهم كما هو معروف...، غير أنها تبدو في الشعر الهذلي مطلوبة ومرغوبة ومعززة، ونجد مثل ذلك أيضا في قول:

ألم خيال طارق متأوب ... لأم حكيم بعدما نمت موصب
تعلقتها نفوداً لذيذاً حديثها ... ليالي لا عمى ولا هي تحجب
فكان لها ودي ومحض علاقتي ... وليداً إلى أن رأسي اليوم أشيب
فلم أر مثلي أيأست بعد علمها ... بودي ولا مثلي على اليأس يطلب
ولو تلتقي أصداؤنا بعد موتنا ... ومن دون رمسينا من الأرض سبسب
لظل صدى صوتي وإن كنت رمةً ... لصوت صدى ليلى يهشّ ويطربُ

إن أبا صخر في هذه الأبيات يعطي مثالا حيا للشاعر العاشق، الذي لا يرى لنفسه وجودا بدون وجود الآخر المرأة التي يكتمل باتحاده معها، ويعطي صورة للوفاء لهذا الحب، المجرد من الشبقية، فهو يحب لذة الحديث معها(لذيذا حديثها)، وإنما هو حب أبدي عاشه منذ طفولته إلى أن شاب رأسه، بل أن لو سمع صدى صوتها وهو ميتٌ لجاء صدى صوته فرحا طروبا به، وأي صورة للعلاقة التي تجل المرأة وتعلي من شأنها أكثر جلاء من

هذا التعبير.

وتتكرر صور المرأة في شعر الهذليين على هذه الوتيرة حتى تكاد تشكل نسقا ثقافيا قارا في نظرتهم الغزلية للمرأة، إذ تجد الشاعر مولها عاشقا، يعبر عن ذاته المنكسرة بغياب الآخر الذي يكملها، ويرمم هذا الكسر فيه، فلا يتوانى الشاعر عن وصف ولهه ودنفه، وما يعانيه من أوصاب الحب، وآلامه، وخير ما نستدل بها على صورة الأنا المنكسرة لفراق الآخر المرأة قصيدة عبد الله بن مسلم بن جندب، التي يقول فيها[٣١]:

تعالوا أعينوني على النوم إنه ... على كل عين لا تنام (طويل)❖
ولا تخذلوني في البكاء فإنني ... لكم عند طول الجهد غير خذولِ
تعالوا إلى نفسٍ تساقط من هوى ... مبتّلةٍ ريّا العظام كسولِ
أتتركُ نفس في هذيل مريضة ... محاذرةَ قتلاً بغير قتيلِ
فويحي وعولي فرّجوا بعض كربتي ... وإلا فإني ميّتٌ بغليلي
فقولا لها قولا رفيقا لعلها ... سترحمني من زفرةٍ وعويلِ
بريقتها أو ريح ثوب أشمه ... فيعرف روحي ريح روح خليلي

غير أن هذه الصورة المعنوية وإن كانت متواترة فإنها لا تبدو مطردة، إذ نجد في غير موضع تجليات أخرى لصورة المرأة نلحظ فيها وجود صور حسية عند، وهي صورة مختلفة تماما عما رأيناه في الأمثلة السابقة، غير أنها ليست بالكثرة الغالبة، وهي صورة يعمد فيها الشاعر إلى وصف محبوبته بصور حسية بحتة، مما يحط من قدرها، وقدر العلاقة التي تجمعه معها، موازنة بالصورة المعنوية التي تجعلها شريكة على قدر من المساواة بين الذات والآخر، ومن أمثلة هذه الصورة الحسية قول أبي الحنان الهذلي[٣٢]:

فإما تعرضين أميمَ عني ... وينعك الوشاةُ أولو النباطِ
فحورٍ قد لهوت بهنّ وحدي ... نواعمَ في المروط وفي الرياط
لهوت بهن إذ ملقى مليحٌ ... وإذ أنا في المخلية والشطاط
أبيت على معاري فاخرات ... بهنّ ملوّبٌ كدم العباط

وتتجلى في النص صورة المرأة بوصفها آخر غير مكترث به، فإن أعرضت استعان عنها بنساء أخريات حور يلهو بهن، وهذي الأخريات تمثل آخر لصورة المرأة، ففي النص تمثلان، الأول هو المرأة المعرضة التي لا يكترث لأمرها، والتمثل الثاني هو النساء اللواتي يلهو بهن، كأنهن أدوات لنزواته، دون أن يكون لهن أي وجود معنوي إنساني، ودون أن تربطه بهن أي عاطفة أو مشاعر، فلسن سوى أداة للذة، وهذا صورة سلبية لتمثل الآخر في الشعر الهذلي، تعاكس تماما ما رأيناه في التمثلات الأخرى.

هكذا يمكن القول أن صورة المرأة تمثلت في شعر هذيل، بوصفها آخر، ببعدين متعاكسين، الأول الذي يشكل ظاهرة عامة، وفيه تتجلى صورة الآخر المرأة بوصفها عنصرا مشاركا للذات في دائرة الوجود، ونصفا مكملا لذاته، التي تنكسر بغياب هذا الآخر، ولا تتورع عن التذلل في وصف معاناتها ومكابدتها بغيابه، والبعد الثاني هو الذي تتجلى فيه صورة المرأة الحسية، والتي لا تكون لها قيمة إنسانية عليا فيه، بل هي مجرد شيء من لوازم اللذة، الموصوفة حسيا، غير أن هذا الأخير لا يشكل ظاهرة واسعة في شعر هذيل.

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة الشائقة ومحاولتنا الدؤوبة في تناول مدونة مهمة وخصبة لما لها من موقع بارز في الشعر الجاهلي، وبعد أن تناولنا موضوعه بحيوية في الزمان وامتداده ليكون رأس المال الحقيقي لصورة ذلك المجتمع بما يعكس من تصورات عن طريق تلك الوثيقة الشعرية الهامة يمكن تحديد جملة من النتائج:

- كثرة انعكاس صورة الآخر القبلي نتيجة تجذر نظام القبيلة الذي يكون الفرد مندمجا فيه بكل ذاتيته.
- بروز الذات الجماعية القبلية من خلال ضمائر المتكلم، أو هوية الآخر من خلال ضمائر الغائب.
- تترافق مع صورة الآخر القبلي بعض السمات السلبية مثل العنف، والسعي إلى الإلغاء والنفي من دائرة الوجود الإنساني.

- شيوع صورة الآخر المرأة في الشعر الهذلي بوصفها نظير الرجل، وتجليها بوصفها المكمل للذات.
- إن صورة الآخر المرأة في شعر هذيل جاءت بتمظهرين: الأول معنوي يحفل بها كجوهر في الوجود الإنساني، إلى جانب جوهرية الرجل، وهذه هي الصورة الغالبة، والثاني وهو الذي ينظر إليها بوصفها مادة حسية، وهو تمظهر نادر موازنة بالتمظهر الأول.

هوامش البحث ومصادره

(١) يُنظر: دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي، سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، ط٣ الدار البيضاء، ٢٠٠٢: ٢١.

(٢) مفاتيح اصطلاحية جديدة (معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع)، طوني بينيت، لورانس غروسبيرغ، ميغان موريس، تر: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة، ط١ بيروت (٢٠١٠): ٤١.

(٣) دليل الناقد الادبي: ٢٢.

(٤) الأختام الأصولية والشعائر التقدمية - مصائر المشروع الثقافي العربي، علي حرب، المركز الثقافي العربي، ط١ الدار البيضاء (٢٠٠١): ٢٨.

(٥) يُنظر: الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، ط١ الدار البيضاء (٢٠٠٨): ٣٤.

(٦) دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي-إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، د.سمير الخليل، دار الكتب العلمية، (د.ط) بيروت (د.ت): ١٠.

(٧) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر رضا كحّالة، المكتبة الهاشمية بدمشق، (١٩٤٩): ١٢١٣/٣.

(٨) شرح أشعار الهذليين، أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري، تح: عبد الستار أحمد فراج، مكتبة دار العروبة، القاهرة (مقدمة المحقق): ٣.

(٩) يُنظر: شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، أحمد كمال زكي، دار الكتاب العربي، القاهرة (١٩٦٩): ٣-٤.

(١٠) المرجع نفسه: ٩.

(١١) يُنظر: المرجع نفسه: ٢٢.

(١٢) يُنظر: أبو ذؤيب الهذلي – حياته وشعره، نورة الشملان، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ط١ (١٩٨٠): ١٢.

(١٣) المرجع نفسه: ١٦.

(١٤) العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥ (١٩٨١): ٨٨/١.

(١٥) يُنظر المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(١٦) ما بُني على أشعار هذيل من تصاريف اللغة وقواعدها، سائد ياسين أسعد كبها، (رسالة ماجستير)، جامعة النجاح الوطنية، نابلس فلسطين، (١٩٩٨): ٧.

(١٧) يُتظر: النزعة القصصية في شعر الهذليين، أسماء عبد المطلوب نوري السيد، (رسالة ماجستير)، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، السعودية (١٤٢٤ه): ٦.

(١٨) المصدر نفسه:٦.

(١٩) الرواية العراقية وسردية الاختلاف، قراءة لوعي الذات مع الآخر، محمد قاسم لعيبي، ط١، دار الفراهيدي للنشر، بغداد، ٢٠١١: ١٧.

(٢٠) ينظر: الفخر في شعر الشريف الرضي، دراسة موضوعية وفنية، سالم العقابي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩٨: ١٥.

(٢١) يُنظر: شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي: ٧٤.

(٢٢) ديوان دريد بن الصمة، تح: عمر عبد الرسول، دار المعارف، ط١ القاهرة: ٦٢.

(٢٣) يُنظر: شعر الهذليين: ٧٤.

(٢٤) ديوان الهذليين، دار الكتب المصرية، ط٢ القاهرة (١٩٩٥): ٧/٣.

(٢٥) ديوان الهذليين: ٢٠/٣.

(٢٦) شرح أشعار الهذليين: ٦٧٧.

(٢٧)يُنظر: صورة المرأة بين الشعر التقليدي والشعر الحديث في سورية (١٩٢٠ – ١٩٧٥)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، عاطفة فيصل، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، (١٩٨٢م): ٥٧.

(٢٨) يُنظر: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة – فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، د.عبد الفتاح أحمد يوسف، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١ الجزائر (٢٠٠٥): ٢٥٨.

(٢٩) يُنظر: شعر الهذليين: ١٥٥.

(٣٠) ديوان الهذليين: ١/٢١.

(٣١) شرح أشعار الهذليين: ٢/٩٠٩.

❖ في هذا البيت إقواء بالضم.

(٣٢) شرح أشعار الهذليين: ١٢٦٨.